إيران وعلاقاتها الخارجية

في

العصر الصفوي

٩٠٦ ـ ١١٤٨ هـ / ١٥٠٠ ـ ١٧٣٦ م

تأليف

نصر الله فلسفي

ترجمة وتقديم

محمد فتحي يوسف الدريس

دكتوراه في الآداب من جامعة طهران

١٩٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذا الكتاب فى الاصل باللغة الفارسية بعنوان « سياست خارجى ايران در دورهء صفويه » من تاليف الاستاذ نصر الله فلسفى • والمؤلف يعد من افضل الاساتذه المعاصرين الذين كتبوا عن العصر الصفوى فى ايران وقد أتاح له عمله كمستشار ثقافى لايران فى اسبانيا وايطاليا فرصة الاطلاع على ما تحويه مكتبات هاتين الدولتين من وثائق ومخطوطات وكتب استفاد منها فى تاليف هذا الكتاب •

وقد قمت بنقله الى اللغة العربية لما وجدته فيه من معلومات هامة تفتقر اليها المكتبة العربية عن هذه الفترة الخطيرة والهامة فى تاريخ العالم الاسلامى وتصاعد الصراع المذهبى بين الشيعة والسنة بشكل لم يكن ظاهرا أو معروفا قبل ظهور الصفويين الذين استعانوا بالاوربيين فى سبيل تحطيم الخلافة الاسلامية العثمانية ، فمهدوا وسهلوا للاستعمار الاوربى الاستيلاء على المشرق باسره بل واقتطاع مساحات كبيرة من اراضيهما •

وقد رايت ان اكتب مقدمة عن اصل الصفويين وكيفية وصولهم للحكم وما ارتكبه الشاه اسماعيل الصفوى من مذابح وحشية فى سبيل فرض المذهب الشيعى على اهل السنة فى ايران وما حولها ، نظرا لان عصره السياسى لم يرد فى الكتاب كغيره من ملوك الصفوية ، لعدم وجود علاقات بين ايران واوربا فى عهده •

وقد يعتب على البعض هذا التصوير الدامى لعصر الشاه اسماعيل الصفوى ، ولكننى اعتقد ان غالبية المؤرخين المعاصرين فى ايران

يذهبون معى هذا المذهب ، وقد يكتب بعضهم بنوع من التلميح خوفا من المتعصبين للمذهب ، ويذهب بعضهم للتصريح احقاقا للحقيقة والتاريخ واستشهد هنا بقول الزميل الفاضل الدكتور ابراهيم باستانى باريزى الاستاذ فى جامعة طهران حيث يقول فى كتابه السياسة والاقتصاد فى العصر الصفوى ، « فى الحقيقة فان مظالم جيش الشاه اسماعيل وسلوكه المنحط تلوث القلم بالعار عند كتابتها ، فانهم بعد ارتكاب المذابح كانوا يوزعون الزوجات على أمراء القزلباشية » ٠

اما بقية العصر الصفوى فقد جاء ذكره بشكل أو اخر فى ثنايا الكتاب مما قد يسهل مهمة القارىء ، ولعل الفرصة تتاح لى لكتابة تاريخ مفصل لهذا العصر ان شاء الله ٠

وقد اضفت للكتاب بعض الحواشى والشروح ، كما اضفت اليه ايضا بعض الخرائط والصور وهو ما ليس فى الكتاب الاصلى ٠

ارجو أن اكون قد اديت خدمة للمكتبة العربية والمهتمين بالتاريخ الحديث ، كما اعتذر عن اى تقصير قد يلمسه القارىء فى هذا الكتاب وبالله التوفيق ٠

القاهرة فى رمضان ١٤٠٩ — دكتور محمد فتحى يوسف الريس

ابريل ١٩٨٩ — دكتوراه فى الادب الفارسى من جامعة طهران

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

الصفويون

اصلهم :

ينسب الصفويون الى الشيخ صفى الدين اسحق الاردبيلى (٦٥٠ ـ ٧٣٥ هـ) وكان شيخا لطريقة صوفية وله زاوية فى مدينة اردبيل (١) · وتجمع كل المصادر المعاصرة له أو اللاحقة به حتى قيام الدولة الصفوية سنة ٩٠٦ هـ على انه كان شافعى المذهب ولم تشر من قريب أو بعيد الى انتسابه لاهل البيت (٢) · ولكن الكتب والمصادر التى دونت فى عهد الشاه اسماعيل الصفوى مؤسس الدولة ، أو تلك التى كتبت بعده ، أضفت عليه واخترعت له نسبا أو صله للامام موسى الكاظم الامام السابع للشيعة الجعفرية أى الى الحسين بن على بن ابى طالب وذلك لكى يصير له ولاسرته وخلفائه من بعده الحق أو الشرعية فى اعتلاء العرش وتوارثه ، ويستندوا الى النسب العلوى فى ادعاء الملك والسيطرة على الحكم ·

ويعتز الايرانيون بالدولة الصفوية أيما اعتزاز ، ويصورونها على انها الدولة التى حققت حلمهم فى الوحدة والسيادة والقومية ، وانها أول دوله ايرانية تحكم بلادهم بعد استعمار طويل أو حكم أجنبى مستمر منذ الفتح العربى لايران ثم تبعه حكم الغزنويين والسلاجقة والمغول والتتار (٣) ، واستثنوا حكم الدويلات الصفارية والسامانية والبويهية التى كان مؤسسوها من اصول ايرانية كما يدعون ويزعمون ·

---

(١) تقع فى اقليم اذربيجان الايرانية جنوب غرب بحر قزوين
(٢) زندكانى شاه عباس المقدمة ص ط
(٣) نفس المرجع ص ب وعالم ارای صفوی المقدمة ص ١٧ ·

واذا أردنا مناقشة هذا الزعم وتحليل هذا الرأى وجدناه لايخرج عن أحد تفسيرين ٠

أولهمـا ، أننا اذا أخذنا بالقـول أن الصـفويين ينتسـبون الى موسى الكاظم أى الى أهل البيت فاننا بهذا نرجع نسبهم وأصلهم الى أعرق القبائل العربية وهى قريش وتصير عروبة الصفويين أمـرا لا شك فيه ولا مراء ، طالت اقامتهم فى ايران أم قصرت ، ويصير حكمهم لايران استمرارا أو عودة لحكم العرب لايران ، وهو استمرار للحكم الاجنبى كما يصورون حكم الغزنويين والسلاجقة وغيرهم من المسلمين الذين وصلوا الى حكم هذه المنطقة ٠

ثانيهما ، أننا اذا قلنا أنهم لا ينتسبون الى الامام موسى الكاظم أو لا ينتمون اليه والى أهل البيت وهو ما تتجه الدراسات الحديثة الى القول به ، أصبح لزاما علينا أن نبحث عن أصلهم ونسبهم (*) ٠

من الجلى الواضح أن الصفويين لم ينتسبوا الى أهل البيت الا بعد أن وصلوا الى الحكم ، فلم يشر أى كتاب قبل توليهم السلطة الى انتسابهم الى الحسين بن على سوى كتاب صفوة الصفوة لابن البزاز والذى ألف فى عهد الشيخ صدر الدين بن صفى الدين ، وقد حدثت فى مخطوطات هذا الكتاب تغييرات كثيرة تجعله عرضة للشك ٠

ويؤيد عدم انتسابهم الى أهل البيت ما كتبه رشيد الدين فضل الله الوزير المشهور لغازان خان المغولى ثم لخليفته أو لجايتو فى رسـالته لابنه أحمد حاكم أردبيل حيث يوصيه بالشيخ صفى الدين الاردبيلى ، وليس بها ما يشير الى انتساب صفى الدين الى أهل البيت وان كان

---

* نفس المرجع المقدمة صـ ط وهامش ص ٤ ٠

(*) ألف احمد كروى كتابا يثبت فيه عدم انتساب الصفويين لال البيت وللاسف لم يصل لايدينا ٠

يذكر علو منزلته فى الدين والتصوف حيث يقول « جناب قطب فلك الحقيقة سباح بحر الحقيقة ، مساح مضمار الطريقة ، شيخ الاسلام والمسلمين ، برهان الواصلين ، قدوة الاصفياء ، زهرة دوحة الوفاء ، الشيخ صفى الملة والدين ، أدام الله تعالى بركان انفاسه الشريفة ...»

وهذه العناوين والالقاب كانت مما يخاطب به كبار رجال اهل السنه وعلماؤها واقطاب الصوفية وفحولها ولو كان الشيخ صفى الدين من اهل البيت لما اغفل هذا الوزير الفاضل الاشارة الى ذلك والاشادة به ، كما انه لو كان شيعيا لما نعته بشيخ الاسلام ، ولقال اية الله او حجة الله او غيرها من القاب رجال الدين الشيعة .

ويقول صاحب كتاب حياة الشاه عباس الاول « من المسلم به ـ كما يتضح من كتب التاريخ فى زمن الشاه صفى واجداد الشاه اسماعيل ـ أن هذه الاسرة منذ عصر الشيخ صفى (٦٥٠ ـ ٧٣٥ هـ) الذى كانت فيه العناصر التركية والفارسية فى اذربيجان مشخصه متمايزة ، كانت من الاسر المحلية الايرانية ، وانه كان يتكلم الاذرية (اى اللغة التركية المحلية فى اذربيجان) كما تعلم التركية والمغولية فى الكتاب»(٥)

واذا كان صاحب كتاب حياة الشاه عباس يرى أنهم من العناصر الايرانية او الفارسية فان مؤلف عالم اراى صفوى ـ المجهول ـ يذكر أن صفى الدين كان تركيا ، فحين تحدث عن أول لقاء جرى بين صفى الدين الاردبيلى وشيخه الزاهد الجيلانى (٦) ، يقول :

« كان من عادة الشيخ أن يعتكف فى خلوته فى شهر رمضان لا يقابل أحدا ، ولكنه فى أحد الاعوام ادرك بعلم هدايته أن صفى الدين

---

(٥) زندكانى شاه عباس اول جـ ١ ص ط (الهامش) .

(٦) هو الشيخ الزاهد ابراهيم الجيلانى وكان قد تولى الطريقة عن الشيخ جمال الدين عن الشيخ شهاب الدين محمود الامرى والتى تنتهى الى الشيخ جنيد البغدادى الى معروف الكرخى .

وصل الى زاويته ، فخرج الى ابنه جمال الدين على وقال له اذهب الى المكان الفلانى فى الزاوية وستجد شابا تركيا فى مقتبل العمر بهذه الملابس والعلامات (التى ذكرها الشيخ لابنه) وهو قائم يصلى هناك ، وعندما ينتهى من صلاته ويسلم قل له ان ابى الشيخ الزاهد يطلبك»(٧) ٠

ثم يكمل قصة هذا اللقاء فيقول « فلما انتهى الشيخ الزاهد من اعتكافه ، رأى المريدون شيخهم يخرج من خلوته وقد وضع يده فى يد شاب تركى » (٨) ٠

ونلاحظ أن مؤلف الكتاب نعت صفى الدين بانه « شاب تركى » ولم يقل سيدا أو شريفا أى من اهل البيت ، كما لم يقل انه فارسى أو من جنس اخر بل قال صراحه انه « تركى » ٠

ولهذا نرى أن القول بانتساب الصفويين الى اهل البيت ليس صحيحا لان ادعاء هذا النسب بعد وصولهم الى السلطة كان ذريعة لتثبيت ملكهم واضفاء الشرعية على حكمهم حتى لا ينازعهم فيه منازع ، ولكى يظهروا للناس انهم احق بتولى السلطة من ابناء جنسهم العثمانيين الذين اقاموا لهم دولة فى اسيا الصغرى ثم تلقبوا بالقاب خلافة المسلمين بعد اخذها من خلفاء العباسيين فى مصر (٩) ٠

ونحن لا نرجح أن الصفويين كانوا من العناصر الفارسية التى كانت تعيش فى اذربيجان كما ذهب مؤلف كتاب حياة الشاه عباس ، لانهم لو كانوا كذلك ما حولوا ايران فى عصرهم الى دولة كل ما فيها تركى أو للعناصر التركية حتى ضاع فيها الفرس واصبحوا غرباء فى وطنهم، وهو ما سيتضح من هذه الدراسة ٠

وقد عاد صاحب كتاب حياة الشاه عباس الاول فى موضع اخر فقال « يبدو أن الشاه طهماسب كان أول ملك من الاسرة الصفوية يدعى النسب لاهل البيت اذا أوصل نسب جده الشيخ صفى الدين الاردبيلى

---

(٧) عالم اراى صفوى ص ١١ ٠
(٨) عالم اراى صفوى ص ١٢ ٠

الى الامام موسى الكاظم ، واطلق على نفسه لقب طهماسب الصفوى الحسينى الموسوى ، تبعه الملوك الذين جاءوا بعده ومنهم الشاه عباس الذى كان يعد نفسه من أولاد على بن أبى طالب ، ولكن يتضح من كتب التواريخ المعاصرة أن هذا النسب لا يقوم على أساس صحيح فقد ثبت من الابحاث الحديثة أن فيروز شاه جد الشيخ صفى الدين السابع جاء من كردستان الى اذربيجان فى حوالى سنة ٥٦٩ هـ ، وأن أجداد الصفوية ايرانيون أصلا » (١٠) ٠

ولعل قوله « ايرانيون أصلا « لا تعنى تحديد جنسهم » لان المقصود بهذا هو تحديد الموطن لا تعيين الجنس ، فهو يعنى أنهم كانوا يعيشون فى ايران أو يحملون جنسيتها ، وأن المؤلف لو أراد تحديه جنس الصفويين لقال « ان أجداد الصفويين فرس أصلا ، أو من أصل فارسى لان المقابل لتركى هو فارسى وليس ايرانى لان ايران كانت كانت ومازالت موطنا لعدة اجناس من اهمها الفرس والترك والعرب والاكراد وغيرهم وهذا هو الاصطلاح الذى تستعمله ادارات وكتب الاحصاء حاليا فى ايران ٠

ولهذا فنحن نرجح ما ذهب اليه صاحب كتاب عالم ارای صفوى من أن صفى الدين الاردبيلى كان تركيا ، وبالتالى فان احفاده الذين اقاموا الدولة الصفوية كانوا اتراكا ، ولا صحة لما زعموه من نسب الى اهل البيت ، كما انهم لم يكونوا من الفرس أو الجنس الفارسى الذى يعتز بفارسيته وبلغته ، فى حين أننا نرى ملوك الصفويين كانوا يتكلمون التركية بل ان بعضهم نظم الشعر باللغة التركية ، كما كانت التركية لغة بلاطهم وديوانهم ، وما فعلوه بايران وبالفرس لا يقبل فارسى أن يفعله بوطنه ومواطنيه (١١) ٠

---

(٩) يعقوب بن الليث الصفار ص ٢٨ ٠

(١٠) زندكانى شاه عباس ص ٣ ٠

(١١) انظر كتاب « سياست واقتصاد در عصر صفوى » للدكتور ابراهيم باستانى باريزى ٠

وصولهم الى السلطان

مقدمة النفوذ :

كان الشيخ صفى الدين اسحق الاردبيلى رجلا زاهد أشد الزهد حتى انه كان يصوم اسبوعا كاملا لايتناول فيه الا وجبة واحدة من الطعام ، فلما منعه شيخه ـ وحموه فيما بعد ـ الشيخ الزاهد الجيلانى عن هذا ، كان يكتفى بلقمة من الارز فى اليوم ، ولم يكن ياكل اللحوم او الدسوم (١) ٠

ظل صفى الدين يلازم هذا الشيخ بعض الوقت ثم زادت الصلة بينهما وتوثقت بزواج الشيخ صفى من فاطمة ابنة شيخه ومرشده ٠ وحين احس الشيخ الزاهد الجيلانى بدنو اجله ، اوصى بأن يحل صفى الدين محله فى رئاسة الطريقة التى كان يتوارثها عن الجنيد البغدادى عن السرى السقطى عن معروف الكرخى (٢) ، وحرم ابنه الذى كان يدعى جمال الدين من تولى هذا المنصب ٠ وهذا انتقلت لصفى الدين رئاسة هذه الجماعة الدينية الكبيرة ، ومشيخة هذه الطريقة الصوفية التى كان لها كثير من الاتباع والمريدين فى جيلان واذربيجان بقال أن عددهم كان مائة الف مريد ، منهم اثنا عشر الفا فى حضرة الشيخ، وكان له اربعمائة خليفة يتولون ارشاد هذه الجماعة والاشراف على شئونها (٣) ٠

كانت هذه هى الخطوة الاولى على طريق الزعامة الدينية والسلطة الدنيوية التى تولاها الصفويون بعد ذلك واصبحت وراثة فيهم ٠

---

(١) عالم اراى عباسى ص ١٣ ٠
(٢) نفس المرجع والصفحة ٠
(٣) عالم اراى صفوى المقدمة ص ١١ ٠

المـال والاتباع :

بعد وفاة الشيخ صفى الدين اسحق ، خلفه ابنه صدر الدين موسى الذى استمر فى رعاية الاتباع والمريدين والعمل على استمرار هـذه الطريقة ، فلما توفى بعده ابنه على بن صدر الدين موسى الذى ينسبون اليه ـ كما ينسبون لبقية ملوك هذه الاسرة تقريبا ـ الكثير من الكرامات خاصة مع تيمور جوركان « لنك » الذى كان يعتقد فى هذا الشـيخ اعتقادا كبيرا ، من ذلك ما يروونه من أن تيمور أثناء عودته منتصرا من حربه ضـد ايلدرم (٤) بايزيد السـلطان العثمـانى قرب انقـوريه (أنقره) (٥) ، مر بأردبيل وطلب من الشيخ على سياه بوش (٦) أن يتمنى أى شىء فطلب منه الشيخ على أن يطلق سراح الاسرى الروم (العثمانيين) الذين كانوا معه ، فأمر تيمور على الفور باطلاق سراح هؤلاء الاسرى والسبايا ، ولم يكتف بهذا بل اشترى تيمور ما حـول أردبيل من مزارع وضياع من حلال ماله وأوقفها على زوايا الصفويين وتكاياهم فى اردبيل ، كما منح خراج تلك البلاد لهذه الاسرة وخصصها لهـم .

وكان تيمور أثناء عودته من حروبه فى اسيا الصغرى قد حمـل معه ما لا يعد ولا يحصى من الاسرى أغلبهم من رؤساء ورجال عشائر تركية هى روملو ـ شاملو ـ قاجار ـ استاجلو ـ افشـار ـ بيات ـ ذو القـدر ـ تكلو ـ ورساق ، وانضم الى هذه العشائر والقبائل التسع فيما بعد صوفية قراباغ . فلما التقى تيمور بالشيخ على بن صدر

---

(٤) ايلدرم يعنى الصاعقة .

(٥) كانت هذه الموقعة فى سهل شوبوق بجوار انقرة يوم الجمعة أول محرم ٨٠٥ هـ (أول اغسطس سنة ١٤٠٤ م) وفى رواية أخـرى فى ١٩ ذى الحجة سنة ٨٠٤ هـ (٢٠ يوليو ١٤٠٢ م) .

(٦) سياه بوش يعنى لابس السواد (توفى ٨٣٠ هـ ١٤٢٦ م) .

(٧) عالم آراى عباسى ص ١٦ وعالم آراى صفوى ص ٢٦ .

الدين موسى المشهور بعلى سياه بوش فى زوايته فى اردبيل قال له الشيخ « ان أغلب هؤلاء الاسرى من خاصتى والمريدين لى مثلك فان أبقيتهم فى ذل الاسر فلن يرضى عنك الله وسوف تطرد من رحابه» ٠

فسأله تيمور وكيف أميز بين هؤلاء لاعرف من هو من مريديك ومن ليس منهم فى هذا العدد الكبير من الاسرى ؟ » ٠

أجابة الشيخ قائلا « ان كل مريد من اتباعى قد خاط على عمامته قطعة من القماش الاحمر ، فمر رجالك كى يخرجوهم من بين الاسرى ويتركوهم فى زاويتى » ٠

وقد تم هذا ، وأطلق سراح الاسرى من مريدى الصفوية وأصبح هؤلاء الاسرى من بلاد الروم والشام بعد قرن من الزمان أمراء وملوكا على عرش كسرى وانوشيروان (٨) ٠

وهكذا اجتمعت لهذه الاسرة كل مقومات الرئاسة والزعامة دون مشقة ، اذ انتقلت الى صفى الدين رئاسة جماعة دينية كبيرة دون أن يشقى فى تكوينها أو يتعب فى انشائها ، ثم منح تيمور لحفيده الشيخ على أعدادا كبيرة من الاسرى الاتراك أصبحوا من مريدى هذه الاسرة واتباعها المخلصين وكونوا قوتها الضاربة ـ كما سنرى ـ بل أصبحوا عصب الحركة الصفوية كلها وعرفوا باسم « القزلباشية » (٩)، وبلغت بعض هذه القبائل من القوه والنفوذ ما جعلها تجلس على عرش ايران بعد زوال الدولة الصفوية نفسها مثل الافشار والزند والقاجر الذين قضى عليهم رضا شاه بهلوى سنة ١٩٢٥ م ٠

وقد سبق أن ذكرنا أن تيمور منح هذه الاسرة الموره المالى

---

(٨) سياست واقتصاد ص ١١ و ١٢ ٠

(٩) قزلباش أى لابس العمامة الحمراء وهى التى أصبحت رمز الصفوية ٠

الذى كانوا ينفقون منه على دعوتهم وحركتهم ، اذ اوقف اردبيل وما حولها عليهم ، كما اعفاهم من خراجها ، بل وجعل كل من يلتجىء الى زاويتهم أو حمايتهم فى أمان حتى ولو كان من اعتى الجناة أو اخطر الاشقياء (١٠) ٠

مصاهرة الملوك ٠

يعد وفاة الشيخ على بن صدر الدين موسى تولى ابنه جنيد زعامة الطائفة وحمل لقب « سلطان » وأخذ فى نشر الدعوة مستغلا الاموال الطائلة والمريدين الذين وهبهم تيمور لابيه فلما علم ميرزا جهانشاه السلجوقى ملك ايران انذاك بما بلغته هذه الدعوة من قوة ونفوذ واتجاه للتوسع ، أرسل الى السلطان جنيد رسالة امره فيها بابعاد الناس والمريدين الذين يلتفون حوله أو فى حضرته ، والعيش فى سلام وأمان والا يفكر فى الملك ، والا فان القضاء عليه يصبح امرا واجبا ٠

رد عليه السلطان جنيد قائلا « نحن لا شأن لنا بالملك ، واننا مشغولون بالعبادة ، وأما قضاء الله فلا راد له » ٠ واستمر السلطان جنيد فى دعوته ، فأرسل اليه ميرزا جهانشاه رسالة ثانية قال له فيها « يبدو أنك لم ترتدع ، وعليك مغادرة مملكتى والا اتيت الى اردبيل وهدمتها عليك وعلى اتباعك ، واعملت فيكم السيف » ٠

عندئذ جمع السلطان جنيد اتباعه وغادروا اردبيل الى ديار بكر التى كان يحكمها انذاك حسن بك اق قويون لو (١١) الذى كان من مريديه ٠ وقد استقبله حسن بك أحسن استقبال واستضافه ومن معه من المريدين والاتباع ثلاثة أعوام ، كما زوجة من اخته حليمة سلطان ،

---

(١٠) سياست واقتصاد ص ١٠ وعالم ارای صفوی ص ٢٥

(١١) حسن بك بن على بن قرا عثمان اق قويون لو التركمانى واق قويون لو تعنى أصحاب الخراف البيضاء ٠

وقد أدت هذه المصاهرة الى أن يحمل أبناء جنيد وأحفاده لقب ميرزا أى أمير ٠

بعد هذه المصاهرة عاد السلطان جنيد ثانية الى مقره فى أردبيل، فلما بلغ خبر عودته الى ميرزا جهان شاه السلجوقى أمر بجمع الجيش والاستعداد لمحاربة السلطان جنيد ، فما كان من السلطان جنيد الا أن جمع رجاله وأتباعه من الصوفية وكانوا نحو عشرين ألفا وتوجه بهم الى شيروان (*) للجهاد ومحاربة الكفار ، وقتل السلطان جنيد فى هذه الحرب وحمل مريدوه نعشه الى أردبيل حيث دفنوه هناك الى جوار جده صفى الدين الاردبيلى ، ثم أجلسوا ابنه حيدر على أريكة الارشاد مكان أبيه ٠

لم يسكت حسن بك اق قويونلو على مقتل صهره فخرج للثأر له ممن دفعه للخروج من موطنه فى أردبيل ، فتوجه الى تبريز وأسر ميرزا جهانشاه السلجوقى ، وضم هذا الجزء من ايران الى ملكه وجلس على العرش فى تبريز مما زاد من شوكه حيدر ميرزا وقوته لان خاله (حسن بك) وهبه أردبيل مرة أخرى كما زوجه من ابنته « عالم شاه بيكم » (١٢) وكان حيدر ميرزا ابن أميرة فصار زوج أميرة أيضا ٠

زواج لـه ما بعده :

كان السلطان حسن بك اق قويونلو متزوجا من مسيحية اسمها « تيودورا » ، أبوها يدعى « كالو جوهانس » وهو شقيق ديفيد كومنينوس امبراطور طرابزون الارمنى آنذاك ، وقد عرفت باسم « دسبينا خاتون » ،

---

(١٢) بيكم للسيدات تعادل لقب بك للرجال وهى تكتب حاليا بالعربية بيجوم واسمها يعنى ملكة العالم ٠

(*) أقليم شيروان يقع غرب بحر قزوين حول مدينة باكو السوفيتية حاليا (انظر الخريطة) ٠

وكانت أختها متزوجة من « كاترينو زينو » سفير دوله البندقية ومبعوثها لدى السلطان يعقوب بن حسن بك اق قويونلو ، وقد أنجبت تلك السيدة (تيودورا) بنتا من السلطان حسن كان اسمها المسيحى « مارتا » أما اسمها بعد زواجها من حيدر ميرزا فهو حليمه بيكم اغا واشتهرت باسم « عالم شاه بيكم » ، وقد انجبت من حيدر ميرزا ثلاثة أولادهم على ميرزا ، وابراهيم ميرزا ، واسماعيل ميرزا ·

وسنرى فيما بعد تأثير هذا الزواج المسيحى على الدين الاسلامى فى ايران واختيار المذهب الشيعى الذى أعلنه الشاه اسماعيل الصفوى منذ اعتلائه عرش ايران · وفى ضوء هذه المصاهرة سنتمكن من تفسير التقارب الشديد الذى حدث بين الصفوية والدول المسيحية سواء روسيا القيصرية أو أوربا وتحالفهم ضد الدولة العثمانية السنية التى أخذت على عاتقها الدفاع عن الاسلام والدول الاسلامية آنذاك ، وأدى هذا التقارب والتحالف الى اضعاف الدولة العثمانية وانهاك قواها فى حروب ضارية مع الصفويين من ناحية الشرق ، ومع الأوربيين من الغرب حتى انهارت الدولة العثمانية واقتطعت اقطارها الاسلامية ليستولى عليها الغرب المسيحى ويقسمها بينه الى مستعمرات ظل يحكمها نحو مائه عام أو اكثر بينما أدى انهيار ايران نفسها الى اقتطاع أجزاء كبيرة منها استولى عليها الروس وضموها الى بلادهم ، وضياع بلاد المسلمين فى وسط آسيا مثل أوزبكستان والتركستان وتاجيكستان وقرغيزيا التى استولى عليها الروس أيضا ·

السلطان حيدر أول قزلباش

بعد أن تولى حيدر ميرزا رئاسة هذه الجماعة الصوفية الكبيرة وأخذ فى رعايتها وتقويتها ومد نفوذها رأى أن يميزها عن غيرها من الجماعات الدينية فادعى أن الامام على بن أبى طالب جاءه فى المنام وصنع له عمامة من الصوف الأحمر بها اثنتا عشرة ثنية طولية تشير

الى ائمة الشيعة الاثنى عشر (١٣) ، فكان يطلق على لابسها « قزل باش » أى لابس العمامة الحمراء ، ووهب السلطان حيدر عمامة من هذه العمائم لكل واحد من أتباعة ومريديه أو طلب منه عملها ولبسها ، وبهذا تميزت هذه الجماعة أو الفرقة الصوفية بهذا الزى المميز ، كما اعلانا عن قيام هذه الجماعة واعتزازها بنفسها وقوتها كجماعة مستقلة. وقد وافق حموه ـ حسن بك اق قوينلو على هذا الاستقلال والانفراد بلبس عمامه مميزه للجماعة تميزها عن سائر الناس فلم توفى حسن بك وخلفه ابنه السلطان يعقوب منع الناس من لبس هذه العمائم الحمراء وتوعد من يلبوسنها بأشد العقاب ، ولم يجد حيدر ميرزا ميرزا مفرا من ترك أردبيل والخروج بدعوى الجهاد فى سبيل الله ونشر الاسلام فى ديار الكفار من ناحية والثأر لمقتل أبيه السلطان جنيد الذى قتله ملك شيروان فى الغزوه التى كان قد قام بها على تلك البلاد من ناحية أخرى ، وقد سارع السلطان يعقوب (١٤) ـ شقيق زوجة حيدر ميرزا ـ بابلاغ شيروان شاه بخروج السلطان حيدر اليه ، ولم يكتف بهذا بل أرسل جيشا لمساعدة شيروانشاه فى القضاء على السلطان حيدر لتخوفه منه ومن أطاعه فى الملك . وقد انتهت هذه المعركة بقتل السلطان حيدر ـ كما قتل ابوه من قبل ـ فى الحرب ضد شيروا نشاه .

الصراع من أجل العرش

جرت أحداث كثيرة ومتشابكة بعد قتل حيدر ميرزا فى حربه ضد السلطان خليل ملك شيروان (أرمينيا) واضطربت أوضاع هذه المنطقة

---

(١٣) أئمة الشيعة الجعفرية الاثنى عشرية هم : ١ ـ على بن ابى طالب ٢ ـ الحسن ٣ ـ الحسين ٤ ـ على زين العابدين ٥ ـ محمد الباقر ٦ ـ جعفر الصادق ٧ ـ موسى الكاظم ٨ ـ على الرضا ٩ ـ محمد التقى ١٠ ـ على النقى ١١ ـ حسن العسكرى ١٢ ـ محمد المهدى المنتظر .

(١٤) السلطان يعقوب بن حسن اق قويونلو كان متزوجا من شقيقة ملك شيروان الارمنى كما أن السلطان حيدر كان متزوجا من شقيقة السلطان يعقوب .

من ايران اضطرابا شديدا ، وتوالى جلوس الملوك وعزلهم اوقتلهم · فبعد السلطان يعقوب جلس ابنه بايسنقر على العرش ، وبعد عامين اجلس الامراء عمه مسيح ميرزا بن حسن بك ثم قتل مسيح ميرزا ، وطالب رستم بك بن مقصود بك بالملك وجلس على عرش الاق قيونلو ، ولكن وزيرهم وقائدهم « ايبه سلطان » خرج عن طاعتهم وقتل ، وتولى الملك محمد ميرزا والوند ميرزا ابنا يوسف بن حسن بك · كل هذا فى سنوات قليلة مما يدل على اختلال الامن وانهيار الاستقرار وانتشار الفوضى فى كل شئون الحياة تقريبا (١٥) ، واضطراب الاوضاع الاقتصادية واحوال الناس تبعا لذلك ·

كان السلطان يعقوب بك اق قويونلو قد قبض على أولاد السلطان حيدر وهم على وابراهيم واسماعيل ونفاهم فى قلعة اصطخر فارس سنة ٨٩٦ هـ حيث ظلوا بها اربع سنوات ونصف الى أن استدعاهم السلطان رستم بن مقصود بك ليجهزهم مع اتباعهم لحرب بايسنقر بن يعقوب (ابن خالهم) الذى كان قد التجأ لخاله وصهره شيروان شاه بن خليل ملك ارمينيا ، واستعان به ليسترد ملكه فى ايران · فلما حقق على ميرزا بن حيدر الصفوى النصر للسلطان رستم انقلب عليه وعلى اخوته واراد قتلهم ، ولكنهم فروا من تبريز الى اردبيل ، فارسل فرقه من جيشه تتعقبهم وقد استطاعت قتل على ميرزا ، وتمكن ابراهيم واسماعيل من الهرب مع سبعه من قادتهم والمقربين اليهم والتجاوا الى حاكم جيلان الذى خباهم عنده بضع سنين (١٦) ·

كانت الجواسيس تبلغ رستم بك بن مقصود بك بوجودهما عند

---

(١٥) سياست واقتصاد ص ١٩ وللتفصيل يرجع لحبيب السير ج ٤ ص ٤٣٩ ·

(١٦) كان يلقب كاركيا وورد اسمه « اميره كيا » فى كتاب عالم ارای صفوی ·

حاكم جيلان فكان يرسل فى طلبهما منه ، ولكن حاكم جيلان كان ينكر وجودهما عنده رغم التهديد والوعيد حتى أوشك على تسليمهما خوفا على حياته وعلى ولايته ٠

ولا بأس من أن نذكر هنا هذه القصة الطريفة التى ترويها كتب التاريخ الصفوى عن كرامات هذه الاسرة وخلاصتها أن الامام على بن أبى طالب جاء الى حاكم جيلان فى النوم وقال له « بعد عشرة أيام اطلب مبعوث رستم بك الذى جاءك للبحث عنهما وقل له لقد أرسل السلطان رستم بك كثيرا من رجاله للبحث عن أولاد السلطان حيدر وقد جابوا الولاية قرية قرية وبيتا بيتا ولم يجدوهما ، واذا لم تصدقنى فاننى مستعد للقسم على أنهما ليسا على أرض جيلان » ثم قال الامام على لحاكم جيلان « عليك أن تربط حبلا بين شجرتين كبيرتين تعلق فيه قفة كبيرة (زنبيلا) وتضع فيها الغلامين (ابراهيم واسماعيل) وعندما يحضر المبعوث ضع يدك على المصحف واقسم على أنهما ليسا على أرض جيلان » (١٧) ونعتقد أن الامام على لا يعلم الناس الكذب أو التحايل ٠

وقد ظل اسماعيل ميرزا لدى حاكم جيلان حتى بلغ الثانية عشرة ثم أراد العوده الى أردبيل ولكن الحاكم طلب منه أن يبقى عامين اخرين حتى يبلغ ، فقبل اسماعيل ميرزا هذا العرض ، ولكن فى ذلك الوقت بلغهم نبأ موت رستم بك ففرحوا كثيرا ، وقال اسماعيل ميرزا « الان حان وقت خروجى » (١٨) ٠ وكان اسماعيل الصفوى عندما التجأ الى حاكم جيلان واختبأ عنده فى السابعة من العمر ومع هذا كانوا يلقبونه

---

(١٧) عالم اراى صفوى ص ٤٤ ٠

(١٨) لا ريب أن غلاما فى الثانية عشرة من عمره لم يكن يتحرك من تلقاء نفسه ، ولكن القواد والمريدين هم الذين كانوا يحركونه ويخططون له وقد نجحوا فى تحقيق مآربهم ٠

بالملك والمرشد الكامل (١٩) ٠

الجلوس على العرش :

غادر اسماعيل بن حيدر الصفوى وأخوه ابراهيم ومرافقوهما الذين يقال أنهم كانوا سبعة من كبار المريدين فى ولاية جيلان وتوجهوا الى أردبيل فاجتمع حولهم أثناء الطريق ثلاثة لالاف من قدامى المريدين دخل بهم مدينة أردبيل وحاصر بيت الحاكم ثم أحضره أمامه ووعده بتعيينه قائدا لجيشه بشرط أن يتشهد بشهادة التشيع وهى « أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وأن عليا ولى الله « ولكن الوالى السنى رفض قبول التشيع فأمر باحضار كمية من الاخشاب والحطب من كل منزل فى المدينة حتى تجمع حطب كثير أضرم فيه النار ثم ألقى فيهـا حاكم مدينة أردبيل ٠ وكانت هذه أول نار تبعتها نيران كثيرة أحرق فيها مخالفيه ٠

بعد هذا أمر بجمع أهل المدينة وطلب منهم النطق بشهادة التشيع، فمن قالها ضمه الى رجاله ، ومن رفضها ألقاه فى النار مع حـاكم أردبيل ٠ وقد خاف كثير من الاهالى من الحـرق فنطقوا بشـهادة التشيع (٢٠) ، ولهذا ضم الى رجاله الكثير من أهل أردبيل حتى بلغ عددهم نحو أربعة عشر ألف رجل ترك نصفهم فى المدينة لحمايتهـا وتوجه فى سبعة الاف رجل الى تبريز العاصمة حيث استطاع دخولها والجلوس على عرش أخواله الاق قويونلو ٠

(١٩) عالم آراى عباسى ص ٢٥ ٠

(٢٠) هذا يدل على أن أهل اردبيل التى شهدت بداية عهدهم ودعوتهم كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة الى أن ادخلهم فى التشيع بالسيف والنار ومن الغريب ان بعض قرى اردبيل مازالت سنية حتى الان ٠

أولى المذابح :

عندما دارت معركة تبريز قتل من جيش الوند ميرزا حتى الظهر نحو عشرة الاف رجل ، وبقى على قيد الحياة عشرون الفا فقال الشاه اسماعيل لرجاله « كل من يقول منهم على ولى الله ، امنوه على حياته ومن يرفضها فاقتلوه · وقد خشى نحو الفين أو ثلاثة على أرواحهم وقبلوا الدخول فى المذهب الشيعى كما استطاع نحو ثلاثة الف جندى اخر الهرب واللحاق بملكهم الوند ميرزا الذى فر من المعركة (٢١) · وقد قتل من تبقى من جيش الوند ميرزا الذين رفضوا التشيع وكان عددهم نحو أربعة عشر الف رجل قتلوا فى الفترة من الظهر حين انتهت المعركة الى غروب شمس ذلك اليوم ، وبلغ مجموع من قتل فى ذلك اليوم الدامى اربعة وعشرون الف مقاتل من رجال الوند ميرزا لرفضهم قول «على ولى الله» اى قبولهم التشيع الذى يفرضه اسماعيل الصفوى بالنار او بالسيف ·

دخل اسماعيل بن حيدر الصفوى مدينة تبريز سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠٠م) وكان فى الرابعة عشرة من عمره ، وجلس على عرش جده لامه حسن بك اق قويونلو الذهبى · ومن الطريف أن العثمانيين ارخوا لقيام هذه الدولة الشيعية بحساب الجمل بكلمتين تنطقان باللغة الفارسية هما « مذهب ناحق » ومعناهما « مذهب الباطل » ، ذلك أن مذهب الدولة الصفوية فى نظر العثمانيين كان مذهبا باطلا ، وحروف هذه الجملة بحساب الجمل مجموعها ٩٠٦ (٢٢) · وقد رد الصفويون على العثمانيين فقالوا ان الاتراك لجهلهم باللغة العربية قرأوا هذه الجملة التى ارخوا بها لقيام دولتنا قراءة خاطئة اذ أن قراءتها الصحيحة باللغة العربية هو « مذهبنا حق » وليس باللغة الفارسية كما نطقها العثمانيون ·

---

(٢١) عالم أراى صفوى ص٢٥ ·

(٢٢) م = ٤٠ ذ = ٧٠٠ هـ = ٥ ب = ٢ ن = ٥٠ = ١ ح = ٨ ق = ١٠٠